

من أين؟ وإلى أين؟

في هذه العاصفة الهوجاء التي تجتاح الدنيا ، والشرق أول ماتجتاح في تهجمها وانقضاضها ، أجتري فأصدرُ « العصور » محتملا في سبيل ذلك ما يهدّ وما يفرع وما يفتال ، وباللّٰه أستعين ، وله أتوجه ، وما توفيقى إلا باللّٰه عليه توكلت وإليه أنيب .

إن بعث مجلة « العصور » التي كان يقوم على تحريرها ، ويتولى إصدارها صديقي إسماعيل مظهر ، عمل قد نصبت نفسي له ، وفرغت من كل شيء في سبيل تحقيقه . لقد كان مما يسعنى أن أصدر مجلة أخرى باسم آخر ، وأنهج لها عين المنهج الذي أريده الآن « للعصور » . ولكن تاريخًا قديما ينبعث من بعض نواحي القلب يدفعني إلى أن لا أختار إلا ما اخترت . « فالعصور » الأولى التي كان يقوم بأمرها إسماعيل ، إنما كانت ثمرة مبدأ اعتقده صاحبه واستمسك به ، وخفّ له ، وناجح دونه ، ورمى به إلى غرض . وفي الطريق إلى غرضه ، أصاب إسماعيل وأخطأ ، وأحسن وأساء ، وأثار إلى نفسه من يحب ومن يبغض ، واحتقب^(١) في ذلك شرًا كثيرًا وأصاب بعض الخير . لقد ميز « العصور » الأولى عن سائر ماكنت رأيته من المجلات أن صاحبها أنشأها لمبدأ تقوم عليه وتعمل به ، واستمر يلاقى في سبيله ما يلقى من شر نفسه وشر الناس ، حتى اندفعت به الحوادث إلى مصائبها ونكباتها فصرف وجهه اضطرارًا ، وفاء إلى سكتة ظاهرة ، يعمل من ورائها قلب مشيوب .

إن الشركة بيني وبين إسماعيل في أصل المبدأ الذي قامت عليه « العصور » الأولى ، هو الذي جعلني أتجاوز ابتداء مجلة إلى بعث مجلة ، وأيضًا ... لقد عملت « العصور » عملا لا ينكر أثره في الفكر العربي الحديث ، وسواء علينا

« العصور العدد الأول ، يوم السبت ٢٧ من رمضان سنة ١٣٥٧ - ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٣٨

(١) احتقب : حتمل .

أكان هذا الأثر مما نرضى عنه أم كنا نعارض فيه ونقف دونه ، ونخالف على صحته أو بطلانه . وعقيدتي أن حقيقة الحياة هي المبدأ والإيمانُ به ، وبغيرهما ينقلب الإنسان آلةً عاملة لا يعرف معنى الإيجاد والإبداع والمقاومة ، والنزوع العقلي والروحي إلى المعاني السامية والفضائل العُلوية . وكذلك يفقد الإنسان الحياة ، وكذلك يضيع التراث الإنساني الذي جاهدت أجيال البشر الغابرة في سبيله ، بما وهبت من قوة ، وما أُعِينت به من وسيلة . إن صحة المبدأ وحدها كفيلة بإحداث أعظم الآثار في تاريخ العقل الإنساني ، وأما الإيمان بهذا المبدأ ، فهو إعطاء العقل قوة التدبير ليخرج حقائقه وأمانيه إخراجاً عملياً في الحياة .

لقد كان المبدأ الأول « للعصور » هو حرية الفكر ، وصراحة الضمير ، وإخلاص للوطن والعلم والأدب . هذا هو المبدأ ، وقد آمن به « إسماعيل » إيمان الشباب المتوقد ، فاندفع به الرأي في مجاهله فاهتدى وضل ، وأضاع نفسه ووجدتها ... لم يبق على حالة يستقر عندها استقرار الحكمة الرزينة .

الرجل الحر ، هذا هو مبدئي ومبدأ أصحابي . الرجل الحر أى الفكر الحر الذى يبلغ من حريته ، واتساع آفاقه ، ويُعد مداه ، وتراميه إلى الغايات البعيدة وتساميه إلى الأجواء العُلوية - أن يعرف أن للحرية قيوداً كثيرة ، وأن الجاهل المغرور هو الذى يظنها انطلاقة من القيد ، وخروجاً من التقاليد ، وتحللاً من إصر الأخلاق وأغلال الشرائع .

إن النفس (البُغائية) ^(١) إذا انطلقت - فى ضعفها وفتورها - بين حدائق الرأى وغاباته أذهلها سعة ماترى من الأرض الخضراء المثمرة المُظلة ، وتُخيل إليها أن الدنيا كلها امتداد لما ترى ينبسط على نهج واحد . ولكنَّ نفس (النسر) الأجدل تنطلق لترى الغاب وما وراء الغاب ، فترى كيف ينتهى إلى قفر يحثه بجذبه وظمأه وقره وإعدامه ، ثم يصده بجبال رواس شامخات الدُرى ، مظلمات

(١) بُغاث الطيور : ألائمها وشرارها وما لا يصيد منها .

النواحي ، مضلات المخارم ^(١) ، فتختلف المعالم باختلاف الحدود . أما الشيء الذى لاحد له ، فهو شيء يستحيل وجوده فى هذه الدنيا ، فلا جرم أن تكون الحرية شيئاً كسائر الأشياء محدوداً بحدوده .

إنى أو من بالحرية ، وأومن بقدرة الرجل الحر على الإتيان بالمعجزة حين تتم فيه آية الحرية ، فلذلك لا يسعنى حين أبدأ هذا العمل إلا أن أقول بملء نفسى لمن يسمع : « من ههنا أبدأ » ، من ههنا أبدأ لا لنفسى ولكن للناس . إن هذه كلمة شاملة لا يكون تفصيلها إلا عملاً فى كل موضع عمل .

إن العمل الصحافى ليقترضنى أشياء كنت بمنجاة منها ، وكان أحب إلى أن أفرغ لما كنت فيه من عمل ، ولكنى أشد حباً لهذا التراث العربى الإسلامى العظيم من أن أدعه فى يد من لا يقوم عليه كقيامى عليه . إن هذا التراث الإسلامى ليس وحده ما خلف آباءى من دين وعلم وأدب وآثار ، بل إن أعظم التراث وخيره وأروعته هو هذه النفوس التى انحدرت معنا إلى هذا العصر من أجيال القوة الحرة المستحصدة ^(٢) العادلة . إن هذه النفوس التى نحيا بها هى التى تطالبنا - من تحت الأدران التى غشيتها - بالعمل من أجلها وفى سبيلها لإنقاذها من التعفن والبلى ، ثم لردها إلى حياة هذا العصر لتثبت أنها لاتزال نفوساً يجب أن توصف بالحياة .

هذه فلسطين الصغيرة المجاهدة المظلومة التى تحيط بها الأفاعى الذهبية من كنوز اليهود تثبت للعالم كله أن (الرجل) فى العربى لم يمت بعد ، وأنه حين يستيقظ فى داخله تستيقظ معه كل الفضائل والأخلاق والتقاليد العربية التى تتوهج تحت شمس البادية المقفرة ... تتوهج كالذهب حيث يفقد الذهب قيمته المدنية . هذا العربى حين يحارب ، ولكن أين العربى العالم العامل المخلص الدؤوب الذى لا يفتر . إننى وأصحابى ممن أكرمونى بصحبتهم ، ومن يكرمونى بعد

(١) المخارم : الطرق فى الجبال .

(٢) المستحصدة : القوية .

بصداقته ، سوف نرصد قوانا كلها لإيقاظ الفكر العربى والإسلامى فى مصر والحجاز والشام والعراق والمغرب وسائر بلاد العربية والإسلام . إن هذا الفكر إذا جدد تاريخه القديم وبدأ بدئه أثبت هو الآخر أن (العاقل) فى العربى إذا انتبه ، انتبهت فيه كل الحقائق العادلة فى الحياة العقلية والاجتماعية ، وكل الأحلام الجميلة الوديعه التى تتندى على النفس العاملة المجهدة بالراحة والسكينة .

* * *

إنى أكتب كلمتى هذه من هذا المكان ، وقد انبسطت تحت عينى خريطة رقعة من الأرض ما بين المشرق والمغرب ، أهلها إما عرب قد انحدروا سلالة أمة تاريخية قد حازت من المجد كل غال وكريم ، وإما مسلمون من غير العرب قد اندمجوا فى العرب بإسلامهم فكانوا منهم واستبقوا خيرات المجد العربى ، وأعانوا على إبداع الحضارة العربية الإسلامية بقلوبهم وأيديهم وعقولهم غير مقصرين ولا متخاذلين .

إن هذه الرقعة من أرض الله كانت يوماً ما نبراس العقل والعلم والحضارة ، بل كانت منبع الفيض الإنسانى السامى المتفوق ، بل كانت مَعْبَدَ الرحمة والعدل والحق ، والسمو بالطبيعة الإنسانية إلى عنان السماء المشرقة بفضائلها وأخلاقها . كانت كذلك حين كانت القوة فى هذه الشعوب ميراثاً لا يضيعه وارث من ورثته ، فلما رمينا بحب الخمول والكسل انفلتت أسباب القوة من أيدينا ، وانفتل كل خير ، وكل مجد ، وكل فكر سام ، إلى من يستطيع أن يحوزه ويحرص عليه ويقوم على تربيته ليربو بين يديه . القوة ، القوة .. إنها الفضيلة الأولى فى حياة الإنسان الحى ، القوة ... إنها عصب الحرية الكاملة التى تعمل بنقائنها لتطهير الحياة البشرية من أدران الذل القدر الذى يجعل الحياة جيفة منتنة على الأرض .

إن هذا الطاعون الوبىء الذى انتشر فى الشرق ، وفى الشرق العربى والإسلامى خاصة ، طاعون الضعف ، قد فت كل خير فينا وأحاله إلى فساد ، فاختلقت الأنظار إلينا هازئة ساخرة بنا .. كلا .. بل هازئة ساخرة بالمجد

المخلف من عصور آبائنا الأمجاد ... كلا ، كلا ؛ بل اختلفت أنظارنا (نحن) إلى هذا الميراث النبيل بالهزء والسخرية والاحتقار ، فصارت الناشئة منا إلى ازدياد ماورثنا من علم وفن وأدب ودين ، وشريعة اجتماعية ، وفضيلة أخلاقية ، واندفعت إلى ما بهر أبصارها من مدنيات الأمم ، وراحمتاه لنا ... إن الضعف قد أيقظ في الإنسان الشرقي الطبيعة المنتكسة ، الطبيعة (القردية) ، طبيعة التقليد على غير هدى في بصيرة النفس ، والفرح بغير انبساط في حرية العقل ، والفكر بغير تأمل في عواطف القلب ، والعمل بغير ضابط من قلب أو عقل أو بصيرة . وأى خير يرجى لمثل هذا الإنسان الذى لاتحركه إلا أدنأ الطبائع ، وأحطها مرتبة عن الإنسانية العالية السامية التى يجب أن تتفوق فى الإنسان المهذب على الإنسان الوحشى المريض فيه .

أكتب هذه الكلمة ، وأنا أعلم أن عمل الصحافة اليوم قد خرج عن أن يكون مقالا أدبيًا يكتبه أديب متمكن ، أو قطعة فنية يصورها فنان مبدع ، أو قصيدة درية تتلألأ على الذرى العالية ، ليسمو الشاعر برواته وقرائه إلى أحلامها الجميلة الرائعة ، تحفها أناشيد النفوس الرقيقة التى عذبها الأسر فى السجن الآدمى المسمى بالجسد ، إنى أعلم ، وأعلم أن الحياة المدنية الحاضرة قد اقتسرت الناس على خطة مالية لايعرف فيها ما قال فلان ، ولكن ، ما ملك فلان ؟ إنى أعلم ، وأعلم أن الجمهور قد اعتنقته هذه الحياة إلى طريقة هازئة ساخرة فهو لايقدر إلا ما يجد له لذة طارئة تهز النفس هزتها الأرضية ... وما يبالي بعدُ باللذة الخالدة التى تبقى حلاوتها فى النفس بالتأمل ، وفى العقل بالتفكير الحر ، وفى القلب بالعاطفة المتفجرة التى تملأ إنسانية الإنسان عذوبة وريًا ، ثم حنانًا ورحمة .

إنى أعلم هذا ... ولكنى أعلم أيضًا أن الصحافة الأدبية الشرقية قد اندفعت فى طريق ليس لها أن تسلكه ، أو تصر على المسير فيه . إن هذه الصحافة قد بلغ بعضها فيما بلغ مرتبة أعظم الصحافة فى العالم ، ولكنى أجد الحق والعدل أكرم عندى من صداقة الأصدقاء . إنى أجل كل عمل ، وأقدر كل عامل ، ولكنى أجل أمتى وتاريخى ، وأقدرهما بما يفوق كل عمل وكل عامل ... إن صحافتنا التى

اتخذنا أساسها من أسس الصحافة الغربية ، لاتنفعنا ولا تجدى علينا إلا بقدر لا يكفي ما نطالب به ونجاهد له . إن هذه الأمم التي أخذنا عنها ، واهتدينا بها ، وشرعنا على منهاجها ... أمم قد بلغت شعوبها من مرتبة الحرية والقوة ما أوحى إلى صحافتها بالنهج الذى يجب أن تنهجه فى تتبع إرادات الشعب ، واستغلال أهوائه وشهواته لمصلحتها ثم لذته . فلذلك كانت هذه الصحافة متعة المستمتع ، وكان فيها لذة الضعيف ولذة القوى معًا ، وكان فيها ما ينفع وما يضر ، ما يهدم وما يبنى ... لأن استفحال القوة وامتلاء النفس والعصب والروح والقلب بآثارها وأصولها ، لا يجعل الشعور بما يضعف أو يضر أو يهدم شعورًا تامًا يوقظ النزاع لمقاومة هذه العوامل الهدامة ودرء آثارها ، وأيضًا لأن القوة تحمل على البغى ، وتجعل الاعتقاد فيها والإيمان بها نفيًا للمبالاة والاكتراث من نفس الإنسان القوى .

أما نحن فإن السبيل علينا مختلف ، والغرض الذى من أجله ننشئ الصحافة جد مبين لأغراض الصحافة الأوروبية . إن صحافتنا صحافة شعوب ضعيفة خاملة متهدمة ، شعوب قد فقدت فضيلة القوة وكل أسبابها العاملة ، وافتقدت نور الحرية النبيلة المترفعة على الشهوات ، وبذلك صار من حقها على الصحفي أن ينظر نظرة متأملة متعمقة نافذة شاملة ، لينهج لها النهج القويم الذى يرد إليها ما فقدت ، ويوجد ما افتقدت ؛ ويعمل لها عمل الأب الرحيم لولده الضعيف حتى يشب ويستحکم .

وأنا حين فكرت فى بعث « العصور » واحتمال تكاليف الحياة الصحفية ، لم ألق كثير بال إلى مشقة المال وهو أصل فى قوة الصحافة ، ولا فى النصب الذى يهد الجسد لأن الروح يجب أن تبقى مستعالية بشبابها على عجز البدن ، ولا فى الآلام التى سآحملها فى كل شئ ، لأن الآلام هى التى تجدد عزم الإنسان ، وتدفعه إذا عرف كيف يحتملها مبتسمًا راضيًا . لم أفكر فى هذا ولم ألق بالى إليه ، وإنما فكرت فى المبدأ الذى يجب على أن أحده لِنفسى تحديد الذى يريد أن يشرع فى عمل ينتظم ، وفى الغرض الذى يجب أن أسدد إليه كل سهم من سهامى فى هذا العمل .

إن مبدئي ومبدأ أصحابي ممن أرتضى أن يشركنى في هذا العمل ، هو الجهاد في سبيل القوة التي نملك بها القدرة على الاحتفاظ بهذه الحريات ، والنظام الذى يسدد خطانا فى العمل بقوة وحرية فى إيقاظ الشعوب المستضعفة العاجزة . إن هذا المجمل الذى تنطوى تحته أسرار اليقظة ، يشمل الحياة الاجتماعية العربية والإسلامية كلها : حياة الفرد من حيث أنه أصل فى تكوين الجماعة وتكيفها ، وحياة الجماعة من حيث أنها اشتراك بين الأفراد لتكوين شعب مثقف عال عامل ، ويشمل الحياة الأدبية والعلمية والعملية ، أو الحياة العقلية كلها مستغلة ومنتجة .

من وراء هذا المبدأ البسيط أهوال ، أهوال النظر فى كل مايمت إليه بسبب من أشياء الحياة ، وأهوال العمل على تنفيذ السياسة التى نتخذها لكل إرادة من إرادات الخير للمنفعة ، وأهوال التنبه للخطأ كيف ينشأ ، وكيف يصلح ، وأهوال الخطر من أين يقبل علينا وكيف يتقى ، وفوق ذلك قول الترفق على هون ، والتلطف للنفوذ بما نريد إلى المكان الصالح لاستنبات المبادئ الصالحة والأعمال الناجحة .

فالعمل الصحفى فى مجلتنا هذه ليس عملاً إخبارياً ولا سياسياً ، ولكنه عمل اجتماعى تمتد أصوله إلى كل شىء ، فى الشارع وفى البيت ، وفى النفس وفى العلم ، وفى الأدب وفى السياسية ، وفى كل ما هو ممثل للحياة التى يجب أن يصير بها الشرق العربى والإسلامى كائنًا حيًا يعيش بنفسه ولنفسه ثم بالإنسانية وللإنسانية .

إن النظرة الأولى إلى هذا المبدأ الذى نهجنه وبيننا بعض أصوله ، توحى إلى الناظر غرور العمل الذى نحن مقبولون عليه ؛ وأما النظرة الثانية ، نظرة المتأمل الذى يرمى ببصره إلى الأعماق البعيدة ثم إلى الذرى العالية ، ويستوعب ما عليه الأمم العربية المختلفة ، وما تتباين فيه وما تتفق عليه ، وما يجترقها من التيارات الحديثة القوية المكتسحة - سوف يرى مشقة العمل ، ومشقة التوجيه السياسى لهذه المبادئ .

وأما الغرض الذى نرمى إليه ، فهو غرض واضح بين لا خفاء فيه . هو إصلاح الحياة التى نحيهاها ، وإمدادها بكل أسباب القوة والحرية والسيادة النفسية والعقلية والأدبية ، وما يحمى هذه السيادة من الخضوع لاستبداد الأهواء والشهوات . وطريقنا طريق واضحة هى أن ننفذ الكسل عن عقولنا وأرواحنا ، ونتجرد للحق والعدل ، والسيادة ، والاستقلال . إننا نريد أن تكون حياتنا المنزلية والاجتماعية ، وحياتنا العقلية والعملية ، وحياتنا السياسية والأدبية ، حياة ممثلة للفضائل الإنسانية الكاملة ، ومميزة لنا بتقاليدها القويمة القوية ، وسامية بنا إلى مرتبة المجد الذى أذهل العالم فى أوانه بحضارته وروعته وعبقريته وجماله . الطريق واضح بين ، فيجب أن نقول وأن نعمل وأن نؤمن بما نقول وما نعمل من سر أنفسنا .. من قلوبنا .. من أحشائنا ... من دمائنا ... من نوازع المجد التى تتراءى لأبصارنا أحلامًا تريد أن تتحقق ... ولا بد من أن تتحقق .